التشيع السلبي مهد الاستبداد

ـ 1 ـ

أسس الإسلام بناء الإنسان المسلم علىٰ الحرية والعلم، وأقام بناء المجتمع المسلم علىٰ الأخوة بين المؤمنين، وقاوم العصبية القبلية الجاهلية التي تفرض علىٰ الإنسان أن يكون تبعاً لغيره بغير علم ولا حرية رشيدة، كأن يكون تبعاً لأبويه أو أحد أفراد أسرته أو أقاربه أو قبيلته أو عشيرته أو قومه دون مساءلة عن الحق أو الصواب، وقد وصف القرآن الكريم هذه المتابعة غير العلمية بالتشيع، وسمىٰ القرآن الكريم الفئة التي تفعل ذلك شيعة، فالشيعة فئة تتعصب لرجل أو لأسرة أو لقوم علىٰ غير أساس علمي ولا فكري، كما في قوله تعالىٰ في سورة مريم المكية: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ [19/ 67/ 70]، وقال تعالىٰ في سورة القصص المكية: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ .. وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [28/ 15،4]، وقال تعالىٰ في سورة الحجر المكية: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [15/ 10].

وقال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ .. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ

obeikandi.com

﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [6/ 65،159]، وقال تعالىٰ في سورة الروم المكية: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [30/ 30-32]، وقال تعالىٰ في سورة النور المدنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[24/ 19].

— 2 —

يلاحظ علىٰ الآيات الكريمة السابقة أنها كلها آيات مكية بحكم وجودها في سور مكية، باستثناء آية واحدة مدنية، هي آية سورة النور، ويلاحظ أيضاً أن لفظ التشيع جاء بصيغة الاسم المفرد أو الجمع في كل الآيات السابقة باستثناء آية واحدة جاء لفظ التشيع بصيغة الفعل، وهي آية سورة النور أيضاً، وفي ذلك دلالات من أهمها أن معنىٰ كلمة التشيع الذي هو من المشايعة أي المتابعة كان في أغلبه للمتابعة بغير علم، ولذا جاء التحذير من المشايعة والتشيع خشية التفرق والتشتت، فكيف تكون المشايعة تشتتاً وفي ظاهرها تجمعاً، هذا ما تجيب عليه معاني كلمة الشيعة في اللغة العربية واللسان العربي المبين.

قال ابن فارس: (شيع: الشين والياء والعين أصلان: يدل أحدهما علىٰ معاضدة ومساعفة، والآخر علىٰ بث وإشاعة.

فالأول: قولهم أتيتك غداً أو شيعة، أي اليوم الذي بعده، كأن الثاني مشيع للأول في المضي.. ويقال للشجاع المُشيَّع، كأنه لقوته قد وقي وشيع.. والشيعة: الأعوان والأنصار. وأما الآخر شاع الحديث، إذا ذاع وانتشر)[1]. وقال الراغب: (والشيعة: من يتقوىٰ بهم الإنسان وينتشرون عنه)[2]. وقيل في الفرق بين الشيعة والجماعة: (أن شيعة الرجل هم

---

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 543.

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ص 470.

الجماعة المائلة إليه من محبتهم له، وأصلها من الشياع وهي الحطب الدقاق التي تجعل مع الجزل في النار لتشتعل كأنه يجعلها تابعاً للحطب الجزل لتشرق)[1].

في هذه المعاني اللغوية وكما في القرآن الكريم ترتبط كلمة التشيع بالأشخاص والرجال وليس بالمبادئ والأفكار، فالتشيع هو متابعة الرجل لذاته وليس لأفكاره أو عقائده، ولذلك وردت في القرآن الكريم في معرض الذم والتحذير منها أو الإنذار عنها أو التهديد بها، وجاءت في معرض أسباب الاختلاف المذموم في الدين كما في قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[6/ 159].

وهؤلاء الموصوفون بالشيع فرقوا دينهم متابعة لزعمائهم ورجالاتهم عصبية وليس تديناً، وهو أشبه بالانشقاق الحزبي الذي يقع متابعة لرجل أو لرجال متنفذين في الحزب، فالمنشق يتشيع له أقاربه لنسب أسري أو صداقة أو لمصالح مشتركة، ولو كانوا علىٰ باطل، ولذا فالشيعي هو من يقول بما تقول به شيعته، بغض النظر عن قناعته هو بها، وهذا يؤول إلىٰ أن تتحول المشايعة أو التشيع إلىٰ استبداد القادة بمن شايعهم، فالرجل يكون من شيعة فلان أو من أنصاره وأعوانه دون أن يكون مشاركاً له في الأفكار أو العقائد أو القناعات، والشيعي يتقبل استبداد سادته دون مساءلة، وإلّا خرج من الشيعة، فهو لا يكون شيعياً إلّا إذا خضع لاستبداد السادة، ومن هنا كان التشيع مهداً للاستبداد، فلا يكون التشيع إلّا وجد الاستبداد والعكس صحيح.

وأما ما جاء في سورة الصافات المكية وهي قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[37/ 79-83]، فإن المعنىٰ هو التشايع في القصة، أي ما وقع بينهما من مشاركة في عصيان الأهل لهم، إشارة إلىٰ قول الله تعالىٰ في الآيات السابقة من السورة نفسها: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ

(1) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، 312.

﴿وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ۝﴾ [37/ 75-78].

فالآيات تتحدث عن الأهل والذرية، وهو ما وقع من تشابه بين قصة نوح وقصة إبراهيم عليهما السلام، فقصة نوح في صراعه مع ابنه، وقصة إبراهيم في صراعه مع أبيه، فكسر إبراهيم مبدأ التشيع الأسري وجعل قدوته في ذلك نوحاً عليه السلام، فالأول أخرج ابنه من أهله لكفره، والثاني أخرج نفسه من مشايعة أبيه الكافر، ولذا أدخل في شيعة نوح بديلاً عن ابنه ليقوم مفهوم التشيع، فكأنه يقول برفض التشيع الأسري بصورته الأصلية لغة واجتماعاً، وأن التشيع الحق ما كان اتباعاً للحق والعلم ولو كان في التخلي عن الأبناء والآباء، والمعنىٰ الآخر عند أهل اللغة أن إبراهيم عليه السلام من شيعة محمد عليه الصلاة والسلام[1]، وفي المعنيين تكون مشايعة الأنبياء لبعضهم للحق ودون عصبية، فالآيات تكون مثلاً في تعديل مفهوم التشيع من مناصرة العصبية القبلية إلىٰ مناصرة الحق، ولو جاز وصفه بمعنىٰ خاص فيمكن وصفه بالتشيع الإيجابي، ولكنه خلاف الأصل في مفهوم التشيع، والله أعلم.

ـ 3 ـ

لقد كان التشيع السلبي القائم علىٰ جعل المتابعة للأقوياء علىٰ أساس القرابة والقبيلة من أكبر العوائق أمام الدعوة الإسلامية في عهدها المكي قبل المدني، فكان ذم التشيع في مكة من هذا الباب ولهذه الأسباب، وهذا سر كون هذه الآيات السابقة في ذم التشيع كانت مكية، حتىٰ يكون الانتماء للإسلام ليس تشيعاً، أي ليس متابعة للرجال والآل والقرابة، وإنما تصديقاً علمياً وقناعة عقلية وإيماناً يقينياً، ولذا وصف الإسلام الجماعة التي يصنعها الإسلام بالأمة ولم يصفها بالشيعة.

الأمة هي الجماعة البشرية التي تجتمع علىٰ علم صادق وعقل مقنع والتزام بالشرع

---

(1) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1415هـ ـ 1995م، م12/ ج22، ص 82.

والقانون، ولذلك قال الله تعالىٰ في سورة آل عمران المدنية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [3/ 110]، ولم يقل كنتم خير شيعة أخرجت للناس، فالأمة وحدة بشرية مثقفة بغض النظر عن الجنس أو اللون أو القومية أو اللغة أو القرابة أو غيرها، وموالاتها للحق وليس للرجال والأهل والآل والأصحاب، فإذا كانوا من أهل الحق فالموالاة للحق أولاً ولمن يتبع الحق ثانياً، مصداقاً لقول الله تعالىٰ في سورة المجادلة المدنية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [58/ 22]، وقول الله تعالىٰ في سورة التوبة المدنية: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[9/ 24].

فالتشيع الذي هو متابعة الرجل للرجل لعلاقة غير علمية ولا مبدئية أمر خطير جداً علىٰ الإسلام وعلىٰ المسلمين، وبالأخص إذا كان التشيع سلبياً، أي المتابعة دون سؤال عن حق ولا اهتمام بالصواب، فهو لا يبني إنساناً قوياً ولا مجتمعاً متيناً ولا دولة مكينة، وقد لا يكون من الصواب القول بأمة شيعية أو مجتمع شيعي، لأن مفهوم الأمة والمجتمع يربط بين المجموعة البشرية وما تحمله من علم وثقافة، بخلاف مفهوم الشيعة الذي يقوم علىٰ مفهوم العصبية لرجل أو لأسرة، أو من يقوم مقامها، وهو ما حذر منه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**لا يكونن أحدكم إمعة، إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء**»[1].

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي، 1/ 180.

– 4 –

التشيع السلبي داء ومرض وتعصب قبلي جاهلي، لا يمكن أن يكون عقلانياً ولا علمياً ولا إسلامياً، وهو بهذه الأوصاف يمثل مهداً خصباً للاستبداد الفكري، إذ لا يكون وفاء الرجل للرجل علىٰ أساس المشاركة في الأفكار والتشابه في العقول وإنما للقرابة والصداقة أو للمحبة العاطفية أو كراهة بالآخرين، وكل هذه الأحوال تؤول بالقادة إلىٰ الاستبداد الفكري، فيفرضون علىٰ أتباعهم ما يريدون وهم يعلمون أنهم لا يسألون عما يقولون ولا ما يفعلون، بسبب أنهم يخاطبون شيعتهم التي تطيعهم طاعة عمياء، فإن وصل الحال بقوم هذا المبلغ آل بهم الأمر إلىٰ التراجع الفكري، والنكوص الحضاري.

لقد عانت الأمة الإسلامية من التشيع السلبي كثيراً، فقد أفرز تاريخ المسلمين الفكري كثيراً من الفرق الإسلامية التي عماد وجودها هو التشيع من أتباعها، بغض النظر عن اسمها التاريخي، فليس الأمر حصراً علىٰ الشيعة العلوية، بل وجدت الشيعة الأموية والشيعة العباسية وغيرها بغض النظر عن الأسماء التي تسمت أو وصفت بها في كتب الفرق والملل والنحل.

إن التحرر من الاستبداد الشيعي يتطلب بناء شخصية الإنسان المسلم علىٰ أساس العلم الحر وليس علىٰ أساس العلم المذهبي، ولا علىٰ أساس التشيع الذي يتبع مرجعية واحدة لا غير، فافتراض وجود مرجعية لها وحدها حق المتابعة والطاعة يجعل هذه المرجعية وكأنها مرجعية معصومة، ويجعل سادتها وأئمتها يستمرئون الاستبداد، بل يعتبرونه سبب قوتهم ووحدتهم وغناهم، وما هو في الحقيقة إلّا سبب ضعفهم وهزيمتهم وفقرهم، لأنه يفقد أتباعهم حق النقد البناء، ويسلب منهم القدرة علىٰ التقويم، الذي يقاوم الضعف ويعالج الأمراض، وبذلك لا يكون الشيعي إلّا فاقداً للحرية الحقيقية في الفكر والفعل معاً، وبذلك يكون التشيع السلبي مهداً حقيقياً للاستبداد الفكري بين المسلمين.

إن أولىٰ الناس بمعالجة التشيع السلبي هم عقلاء أهله، لأنهم أكثر الناس ضرراً، وأكثر المسلمين حاجة إلىٰ الحرية والمساواة بين المسلمين، فما كان التشيع الأول إلّا للحق والحقيقة،

obeikandi.com

وليس للأشخاص والأسر والرجال، وما كان دافعه الأول إلَّا حرية النفس وحرية الأمة وحرية الدولة، ضد مظالم المترفين والمفسدين والطامعين، ممن عضوا علىٰ المال وعضوا علىٰ الملك وعضوا علىٰ الاجتهاد، فالتشيع للحق والعلم والعدل والمساواة بين الناس سيف علىٰ الاستبداد والمستبدين.

۞ ۞ ۞

obeikandl.com